دراســـة

آفاق التخادم الإستراتيجي الروسي-الإيراني في سوريا

18 يونيو 2020

د. أحمد بن ضيف الله القرني
نائب رئيس المعهد الدولي للدراسات الإيرانية

RASANAH
المعهد الدولي للدراسات الإيرانية
International Institute for Iranian Studies

ⓒ رصانة - المعهد الدولي للدراسات الإيرانية ، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القرني ، أحمد بن ضيف الله
آفاق التخادم الإستراتيجي الروسي-الإيراني في سوريا. / أحمد بن ضيف الله القرني .- الرياض ، ١٤٤١هـ

..ص ؛ ..سم

ردمك: ٦-١-٩١٤٤٨-٦٠٣-٩٧٨

١- روسيا - العلاقات الخارجية - ايران ٢- ايران - تاريخ - العصر الحديث ٣- الحروب أ.العنوان

ديوي ٩٥٥,٠٢ ١٤٤١/١٠٣٥٦

RASANAH
المعهد الدولي للدراسات الإيرانية
International Institute for Iranian Studies

المحتويـــات

مقدمـة 3

أولًا: التنسيق الروسي مع الأطراف الإقليميَّة والدوليَّة في سوريا بمعزلٍ عن إيران ...5

1- تقارب المصالح الروسية-التركية يُقلق إيران 6

2- أولوية الأمن الإسرائيلي في الأجندة الروسية..... 13

3- إدخال موسكو لواشنطن طرفًا في الأزمة السورية..... 16

ثانيًا: خلافاتٌ حول بقاء الميليشيات الإيرانية..... 20

ثالثًا: الصراع على الاقتصاد وتقاسم الثروة في سوريا 26

رابعًا: التنافس على توظيف المكانة الجيو-سياسية والجيو-ثقافية لسوريا..... 30

خامسًا: أي أُفقٍ ينتظر تصاعد الخلافات الروسية-الإيرانية؟ 35

خلاصة 38

مقدمـة

بينما ينشغل العالم بمكافحة جائحة «كورونا» المستجِّد، تكافحُ روسيا وإيران لإبقاء سـوريا في «الحجر» غير الصحي الذي تريد كلٌ منهما فرضهُ على الأرض السورية، وفقًا للمعايير المصالحية لكلا الدولتين. في هذا السـياق أتت زيارة وزير الدفاع الروسـي سـيرغي شويغو إلى دمشـق في 23 مارس 2020م، ولاحقًا، زيارة وزير الخارجية الإيراني محمـد جـواد ظريـف الذي التقى الرئيس السـوري بشـار الأسـد في 20 أبريـل 2020م. وتأتـي زيارة وزير الدفاع الروسـي الأخيرة لتوجيه تحذيـرات للأسـد بعـدم الإنصات كثيـرًا للإيرانيين، وعـدم تأييدهم في اسـتمرار تفجير الوضع، وأنَّ روسـيا لا تسـمحُ بتجاوز الاتفاقيَّات الروسية التركية حول إدلب، فيما تأتي زيارة وزير الخارجية الإيراني بنـاءً على التطورات في السـاحة السـورية في محاولـة لوضع النقاط على الحروف ومناقشة ما تراه، إيران، أنها شواهدَ ميدانية تدُل على

إقصائها من التفاهمات الجارية بين روسيا وأمريكا من جهة، وبين روسيا وإسرائيل من جهةٍ أخرى، واستبعادها أيضًا من التفاهمات والترتيبات الروسية التركيةً الأخيرة حول إدلب وغيرها.

هاتان الزيارتان تأتيان بينما العالم منشغلٌ بكارثة «كورونا» حصرًا وتبعاتها الاقتصادية القاسية، وانحسار الاهتمام بالقضايا الدولية. هذا يُعطي انطباعًا بأنَّ حدة الخلافات بين موسكو وطهران حول طريقة تعاطيهما مع الشأن السوري وصلت تقريبًا إلى مفترق طرق، حتى إنَّ موسكو وصفت علاقتها بطهران بأنها «علاقةُ تنسيق وليس تحالفًا»، فما طبيعة هذه الخلافات، وما مسارات تطورها، وماً آفاقها المستقبليّة؟

بدايةً، يجب الاعتراف بأنَّ ما يربطُ روسيا وإيران هي مصالح مشتركة وعلاقة تعاونٍ عسكريّ وأمنيّ في إطار رؤيتهما المشتركة التي تجمعهما لعقودٍ من الزمن فيً مواجهة ما يُسميانه بالعدو الغربي المشترك. كما يلتقيان في عدائهما لما يُطلقان عليه «الجهاديَّة الإسلاميَّة»، والمقصود من هذه التسمية التنظيمات السُنية، إذ تُصنِّف روسيا الجماعات الإسلامية ضمن مصادر التهديد لأمنها القومي، وتخشى من وجود ارتباطٍ بين هذه الجماعات ونظائرها في القوقاز ودول آسيا الوسطى.

ومنذ أن دعمت كلٌ من إيران وروسيا بشار الأسد ومنعت انهيار نظامه منذ بداية النزاع بينه وبين معارضيه في سوريا عام 2011م، جرى تنسيقٌ في الأدوار تخللتهُ بعض الخلافات التكتيكية التي لم تلبث إلّا أنْ تنتهي بالتفاهم السياسي دون أن يصل إلى فكٍ للشراكة التخادميَّة التي تجمعهُمَا.

وكان سيجري البتّ في بعض التباينات، بيد أنَّ تطور الموقف

السياسيٍّ والعسكريٍّ، ووصول الأزمة إلى مرحلة النهايات، وما سيتخلّلُها من إعادة الإعمار في سوريا، دفع بهذه التناقضات والخلافات إلى السطح، وتصاعدت حدّة التباينات بينهما في أكثر من زمان ومكان، وهو أمرٌ طبيعي يحدُث دائمًا بين التحالفات المُشتركة عند قُرب موعد الحصاد وتوزيع الغنائم. ومنذ العام 2014م ظهرت على الساحة السورية موضوعاتٌ متناقضة بشدة بين الحليفيْن الروسي والإيراني حول شكل النظام السياسي، ومستقبل الدولة في سوريا، وإمكانية استمرارية بشار الأسد في الحكم، وهُويَّة المؤسَّسة العسكريَّة السورية، وهيكلة مؤسَّسات الدولة، ومناطق انتشار قوات الدولتين، واستمرار القوات الأجنبية والمرتزقة في سوريا، وملف إعادة الإعمار. أما الأهمّ فهو الخلافات بينهما حول التفاهمات المنفردة الجارية بين روسيا وتركيا وواشنطن وإسرائيل، وخشيةَ النظام الإيراني من نتائجها العكسية على مستقبل مصالحه في سوريا.

أولًا: التنسيق الروسي مع الأطراف الإقليميَّة والدوليَّة في سوريا بمعزلٍ عن إيران

ربما يبدو العامل الأشد قلقًا للنظام الإيراني هو التفاهمات الروسية التي فتحت الأخيرة منها قنواتٍ لها مع كافة الأطراف الإقليميَّة والدوليَّة المنخرطة في الصراعٍ، بما فيهم خصوم طهران نفسها، على غرار إسرائيل والولايات المتحدة. وهنا، ترى إيران أنَّ موسكو تسعى إلى تكريس دورها بوصفها الرقم الصعب في المعادلة السورية والمحور الرئيس في مجمل الترتيبات التي يجري العمل على صياغتها في مرحلةٍ ما بعد انحسار المواجهات المُسلحة، في وقتٍ استعادَ فيه النظامُ أغلب الأراضي السورية مع قُرب انطلاق مرحلةً التسويات السياسية النهائية.

هذا ما دعا جهات سياسية مُتعدّدة في البرلمان الإيراني والمؤسَّسات الأخرى للتحدث أكثر من مرة عن وجود نوايا روسية للاستحواذ على سوريا وتهميش إيران، وأنها تنفرد بتفاهمات مع تركيا وإسرائيل وأمريكا بمعزلٍ عن إيران[1]. والحقيقة، أنه ورغم بعض المجاملات السياسية البروتوكولية، فإنَّ الروس تعاملوا مع إيران بوصفها لاعبًا ثانويًا في الساحة السورية، ويستطيع المراقب أنْ يلمح تردد موسكو بالفعل في إشراك طهران بكامل اتفاقيات ترتيب الوضع السوري.

1- تقارب المصالح الروسية-التركية يُقلق إيران

أكثر ما تخشاه إيران هو التقارب المستمر للمصالح الروسية والتركية في وقتٍ يتصادم طموح طهران مع الطموح التركي حول مِلفات عدة. تُدرك إيران أنه في تاريخ الدولة العثمانية (1299م-1923م) تمكَّن الأتراك من احتلال وهزيمة وحُكم جميع الدول العشر المجاورة لها باستثناء روسيا وإيران، وبالتالي فتركيا منافسٌ إستراتيجيٌّ تاريخيٌّ كبيرٌ لها على النفوذ والتوسع في منطقة شمال الجزيرة العربية. وتخشى طهران من أن يُعيد التاريخ نفسه وتصبح أنقرة إحدى العقبات الإستراتيجية الكبرى في سوريا خاصةً بما تملكهُ الأخيرة من مقومات تمكين قوية هي: ارتكاز تركيا على عضويتها في حلف الناتو، وعلى شراكتها القوية مع روسيا في إدارة الملف السوري، وعلى مبررات الجوار الجغرافي وأمن حدودها، ومذهبها السُنني الذي تتشاركه مع الأغلبية السُنية في سوريا.

يصفُ الكاتب الإيراني حسين كريمي الخطر التركي على سوريا بأنه نابعٌ من سَعي أنقرة إلى تفكيك إدلب، حيث قامت تركيا في

(1) المركز الديمقراطي العربي، مياه الخليج بين الهيمنة الأمريكية والتعنّت الإيراني: السياقات والمآلات، (15 مايو 2020م) تاريخ الاطلاع: 29 مايو 2020م، https://bit.ly/3dhEXn0

عام 1939م بِضَمّ إقليم إسكندرون لأراضيها، وتسعى حاليًّا لتجزئة وتفكيك إدلب لِضَمها لأراضيها؛ لأجل إقامة طريقٍ لها يوصلها إلى سوريا والأردن وكافة دول منطقة الشرق الأوسطِ. هناك مطامع تركية تاريخيّة في ضم أجزاءٍ من الأراضي السورية، وتدّعي بأنَّ لها أحقيةً تاريخيةً، مثلما تتكرر الادعاءات التركية من قِبل مسؤوليها في أحقيتهم بكركوك والموصل العراقية، وهو الأمر الذي جعل المسؤولين الإيرانيين يرفضون تلك النوايا معتبرين أنّ ذلك، كما يقول الكاتب، سيؤدي إلى إشعال فتيل الأزمة في الشرق الأوسط! أما الأمر الآخر فيتركز حول مسألة معارضة إيران للمساعي التركية الرامية لزيادة نصيب مشاركة التركمان في سوريا؛ نظرًا لأنّ أغلب الجماعات السياسيَّة والعسكريَّة التركمانية في سوريا يقبعون تحت إدارة وإشراف تركيا بل وإنّ غالبية التركمان السوريين يتلقون الأوامر من أجهزة المخابرات التركية. يُضاف إلى ذلك أنَّ أنقرة قامت في السابق بتسليح التركمان تحت غطاء تقديم المساعدات الإنسانية[1].

وتابع الكاتب حسين كريمي قائلًا: «تتعارض المصالح التركية والإيرانية في سوريا حول موضوع نوع الحكومة في سوريا، حيث حُظي التاريخ بسلسلةٍ من الاختلافات الدينيَّة والمذهبيَّة بين الدولتين الصفوية (الشيعية) والعثمانية (السُنية). فبعد سقوط الأخيرة وقيام تركيا على يد مصطفى كمال أتاتورك وميولها نحو الغرب، أصبحت الحكومة التركية ذات منحًى مختلفٍ عن السابق»[2]. وأضاف الكاتب أنَّه «في الفترة التي كانت إيران تحت الحكم البهلوي الذي اتّخذ هو الآخر منحًى نحو الغرب، حينها، لم تكُن تشهد الدولتان أيّ حساسيَّة

(1) حسين كريمى فرد، تعامل وتقابل ايران وتركيه در بحران سوريه، فصلنامه سياست، سال چهارم، شماره سيزدهم، 1396، ص 78.

(2) المرجع نفسه.

دينيَّـة بينهمـا خاصةً وأنَّ تركيـا أصبحت علمانية الحكم. إلّا أنَّ الأمر تغيـر بعد قيـام الثورة الإيرانية عام 1979م وعادت الخلافات الدينية إلى سـابق عهدها بعد أنْ تغيّر شـكل الحكم في إيران وأصبح دينيًّا، حيث كان عددٌ من المسـؤولين الأتراك قد صرّحوا بالخطر الشـيعي على تركيا ومخاوفهم من النموذج الإيراني. ومخاوف تركيا فيما يتعلق بسوريا تكمُن في أنها ترى بأنَّ وصولِ نظام حكم مذهبي يُوالي إيران مـن الممكـن أنْ يُهـدد تركيا مسـتقبلًا، فـي الوقت الـذي لا تريد فيه إيران أن يكون النظام السياسي في سوريا علمانيًّا»[1].

وبالتالـي فـإنَّ مصـدر القلق الأسـاس لـدى النظام الإيرانـي هو أنَّ هناك توافقًا ما، غير معلن، بين السياسـتين الروسـية والتركية، حول مستقبل سوريا، وأنهما يسعيَان إلى إنهاء الوجود الإيراني بشكلٍ كامل فـي الشـمال السـوري، وإجبار القـوات الإيرانية على الانسـحابٍ من هذه المنطقة، وربما يخططان إلى ما هو أبعد من ذلك بإجلاء إيران من كامل سوريا.

وفي واقع الأمر، ومنذ بداية الأزمة، عملت تركيا على إحداث تأثيرٍ ثقافيّ وديموغرافي في الشمال السوري، ولا ترغب في حضورٍ إيرانيٍ ولو بسَيط في هذه المنطقة، إنْ لم يكُن في كل سوريا، إذ قامتٍ بتغيير التركيبة البشرية وتغيير هُوية المكان وإكسابه طابعًا تركيًا في مناطق الحدود مع سوريا. وتهدفُ من ذلك إلى خلق وإيجاد نطاقات سُكانيَّة واجتماعيَّة عربية خاضعة إلى تُركيا في مناطق الحدود، وأن يسـتمر نفـوذ التنظيمـات الحليفـة لهـا فـي محافظـة إدلب حتى بعد تسـوية الصراع، ومنع الحكومة السـورية من إدارة المحافظة كونها جزءًا من إقليمٍ الدولة السورية. تهدفُ تُركيا في محافظة إدلب لجعلها منطقةً

(1) المرجع نفسه، ص 80-78.

خاضعةً للفصائل والتنظيمات السياسيَّة والعسكريَّة المدعومة منها التي تسيرُ في فلكها. فكثيرٌ ممَّن يسكنون مُحافظة إدلب الآن هُم ليسوا من أبنائها ولكنهم من أعضاء تلك التنظيمات والفصائل من كُل أنحاء سوريا الذين تمّ نقلهم إلى إدلب في السنوات الأخيرة.[1] بالطبع، إيران قلقةٌ من استمرار تركيا في هذا النهج وسط صمت روسي. وعلى الرغم من أنَّ إيران وتركيا سبقَ ونسقتا سويًا لإجهاض تجربة الانفصال الكردي في العراق في سبتمبر 2017م، وهناك تنسيق جارٍ بينهما لتقليص تمدد نفوذ القوى الكردية في شمال سوريا، يُضافُ إلى ذلك أنَّ الدولتين عضوين في آلية أستانة للتسوية السياسية حول سوريا؛ إلّا أنه بدا واضحًا تزايُد حدة المنافسة بينهما في الملف السوري وحجم الاختلاف العميق والجذري حول سُبل التسوية في سوريا. يبقى أنّ الهجوم الثلاثي الأمريكي البريطاني الفرنسي فجر 14 أبريل 2018م على مواقعَ في العاصمة السورية دمشق وخارجها في محافظة حمص، لما وُصِف بأنه معاقبة الأسد على استخدام سلاح محرَّم دولِيًّا، أظهر أن تركيا، كما تنفردُ بالتنسيق مع روسيا، فهي أيضًا تتَّبنى خيارات إستراتيجية مع الغرب، حلفائها في الناتو. تلك الضربات وما نتج عنها من تبعات أظهرت أنَّ التحالف الإيراني-التركي في سوريا، ليس إلا تحالفًا تكتيكيًّا مرحليًّا لا إستراتيجيًّا، سيزول بزوال أسبابه ومسوغاته، ما جعل إيران ترى في تركيا اللاعب الذي له أجندته الخاصة ولا يُمكن الوثوق به.

ويُضاف إلى ذلك أنَّ إيران أبدت رفضًا واضحًا للعملية العسكريَّة التي تشُنها تركيا في شمال سوريا، بدايةً من 09 أكتوبر 2019م، تحت مسمى «نبع السلام»، إذ اتخذت خطواتٍ عديدة حاولت من

(1) موقع العين الإخبارية، ما هي أهداف تركيا الحقيقية في سوريا؟، (19 مارس 2020م)، تاريخ الاطلاع: 29 مايو 2020م، https://bit.ly/3dsBdzm.

خلالهـا توجيـه إشـارات إلـى أنقرة بأنهـا لا تدعم الترتيبـات الأمنية التي تقوم بصياغتها في شـمال سـوريا، ولا سـيَّما أنها كانت بالتوافق مع روسيا والولايات المتحدة الأمريكية. ولم تكتفِ إيران بإبلاغ تركيا معارضتها للعملية العسـكرية التي تشُنها داخل الأَراضي السورية في الفترة الحالية، واتخذت خطوات أخرى في هذا السـياق، منها: إلغاء زيارة رئيس البرلمان الإيراني السـابق علي لاريجاني إلى إسـطنبول، والتي كانت ستجري بالتوازي مع بداية العملية، للمشاركة في اجتماع برلمانـيٍّ بدعـوة مـن نظيره التركي. كما سـمحت السـلطات الإيرانيةً لوسـائل إعـلام بشـن حملـةٍ قويـة ضـد تركيـا والرئيس رجـب طيب أردوغان، حيثً وضعت صحيفة «فرهيختكان» على صفحتها الأولى في العدد الصادر في 08 أكتوبر 2019م، عنوان: «السلطنة في خدمة الإرهاب»، وصورةً للرئيس أردوغان، إذ اعتبرت أنَّ العملية العسكرية ستمنح «تنفسًّا صناعيًّا للإرهاب»[1].

ولهـذا أتـت زيارة ظريف الأخيرة إلى دمشـق، كمـا وصفتها مصادر إعلامية، للتعبير عن انزعاج طهران من العمليات العسكرية المستمرة في الشـمال السـوري ومن استبعادها من التفاهمات الروسية التركية الخاصـة بإدلـب، المُبرمـة في 05 مارس 2020م. فإيـران فهمت أنها بالاسـم فقـط ضمـن مسـار أسـتانة، ولا وجـود لقـوات إيرانيـة بيـن الدوريات المشتركة الروسية التركية، ولا الترتيبات العسكرية، بل إنَّ اتفاق موسـكو الأخير سـمح لتركيا بتعزيز قواتها العسـكرية إلى نحو 16 ألف عنصر، وآلاف الآليات والدبابات، في شـمال غربي سـوريا. علـى إثرهـا، نقلـت طهران إلى دمشـق ضـرورة أن يكون اتفـاق إدلب

(1) موقع مركز المسـتقبل للأبحاث والدراسـات المتقدمة، لماذا تعارض إيران العملية العسـكرية التركية في سوريا؟ (15 أكتوبر 2019م) تاريخ الاطلاع: 29 مايو 2020م، https://bit.ly/2z0RDQi.

مؤقتًا ولا يسمح بوجودٍ تركي دائم[1].

وما زالت إيران حريصةٌ عَلى الترويج إلى أنَّ «الخطر» الأكبر الذي يواجه مستقبل الترتيبات الأمنية والسياسية في سوريا يتمثَّل في بقاء مشكلة إدلب دون تسوية. ففي رؤيتها، أنَّ هذا الملف يكتسب أهميةً أكبر بمراحل من «الخطر» الذي تزعم تركيا أنه يُواجهها من خلال سيطرة الميليشيا الكردية على المناطق المحاذية لحدودها، وترى اتجاهاتٌ في طهران أنَّ أحد أهداف العملية العسكرية التركية يتعلق بمحاولة توجيه الانتباه بعيدًا عن مِلف إدلب، التي تحولت إلى «خزَّان جهاديٍّ» في ظِل سيطرة التنظيمات الإرهابية عليها، وهو الملف الذي سعت إيران وروسيا والنظام السوري إلى منحه الأولوية في الفترة الماضية؛ لأجل إنهاء التنظيمات الموجودة فيها وتوسيع نطاق سيطرة القوات النظامية على الأرض[2].

أوصل التصعيد العسكري الجاري في محافظة إدلب في شمال غرب سوريا حالة «الودّ» الظاهري بين تركيا وإيران إلى نهايتها، وأجلى التناقض العميق بين الطرفين، وذلك عندما وجدَت ميليشيا حزب الله المقاتلة إلى جانب قوات النظام السوري نفسها في مرمى نيران القوّات التركية، الأمر الذي أثار حفيظة طهران ودفعها إلى توجيه إنذارٍ لأنقرة، وأدّى قصفٌ جوّي نفّذه سلاح الجو التركي على المنطقة الممتدة من معرة النعمان إلى سراقب بجنوب شرق إدلب، إلى مقتل ما لا يقل عن خمسة عشر عنصرًا من عناصر حزب الله اللبناني بينهم قادة ميدانيون إضافةً إلى تدمير كمٍ كبير من عتاد

(1) موقع العربية، روسيا تلوي ذراع الأسد بشروط: لا اشتباك مع الأتراك! (20 مايو 2020م)، تاريخ الاطلاع: 30 مايو 2020م، https://bit.ly/3gHzWq0 .

(2) موقع مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة، لماذا تعارض إيران العملية العسكرية التركية في سوريا؟ مرجع سابق.

الحزب وأسلحته[1].

أنقـرة مطمئنـة وتعلم، وهـي تسـتهدفُ قـواتٍ تابعة لإيـران ولحزب اللّه، أنها أولاً تستميل الولايات المتحدة الحريصة، في عهد الرئيس دونالـد ترامـب، علـى تحجيم نفوذ إيران وقطـع أذرعها في المنطقة. ثُـمَّ إنهـا تدرك عدم اكتراث روسـيا بضرب ميليشـيات حزب اللّه في سـوريا، وهو ما ثبُت بشـكلٍ متكرّر عند اسـتهداف إسـرائيل للمواقع الإيرانية داخل الأراضي السورية. وأصبحت إيران، عمليًّا، باستهداف القوات التركية، ميليشيا حزب اللّه اللبناني (الذراع الأقوى لإيران في المنطقة) في حالة مواجهةٍ مع تركيا.

ولكـن رغـم أنَّ إيـران مسـتاءةٌ جـرّاء التفاهمات التركية مع روسـيا والعمليـات العسـكرية التركيـة الأخيـرة، فإنّهـا تُظهـر حرصهـا علـى اسـتمرار علاقاتها مع تركيا، على المسـتويات المختلفة، وتسـوّق لها بأنهـا علاقـاتٌ إيجابيـة، بل إنَّ طهران ربما سـتلعب بشـكلٍ أكبر دورَ الوسيط بين تركيا من جهة والنظام والأكراد من جهةٍ أخرى. فطهران لا تريـد أن تُغامـر بقطع علاقتها مـع تركيا ولا التضحية بها، فهامشُ النظـام الإيرانـي فـي المنـاورة أضحى قليلٌ جـدًّا لإدراكه بـأنَّ أمامه ضغوطًا إقليميَّة ودوليَّة، وربما يحتاج أنقرة كوسيطٍ في مِلفه النووي، كمـا فعـل من قبـل، أو فـي مِلفه الاقتصادي بسـببِ تبعـات العقوبات الأمريكية، أو حتى في بعض المِلفات في العراق وسوريا، وتُعوِّل إيران علـى تركيـا بالوقـوف إلـى جانبها ضـد أيّ محاولةٍ من جانـب الدول العربيـة للتقـارب مع العراق ولعب دورٍ مسـتقبليٍّ في سـوريا، وخاصةً من قِبل السعودية أو الإمارات.

---

(1) موقع جريدة العرب، معركة إدلب تسـقط قناع «الود» الشـكلي بين تركيا وإيران، (02 مارس 2020م)، تاريخ الاطلاع: 31 مايو 2020م، http://ks.sa//av5b.

2- أولوية الأمن الإسرائيلي في الأجندة الروسية

مصدر القلق الثاني في سياق التفاهمات الروسية، ما تراه إيران من أولويةٍ للأمن الإسرائيلي في الأجندة الروسية. أعلنت وزارة الدفاع الروسية مُبكرًا وبالتحديد في 10 أكتوبر 2015م، أنَّ الجيش الروسي أنشأ «خطًا مباشرًا» مع الجيش الإسرائيلي، وذلك للتنسيق لمنع أيّ احتكاكٍ محتمل بين الجيشين الروسي والإسرائيلي. وتستندُ آلية التنسيقً بين الجانبين في سوريا إلى هذا الخط الساخن الذي يربط بين قيادة القوة الجوية الروسية المتواجدة في مطار اللاذقية، وقيادة القوة الجوية الإسرائيلية[1]. وبالنسبة إلى روسيا فالهدفُ من هذه الآلية هو حماية الجيش الروسي من القصف الخاطئ للغارات التي تنفذها إسرائيل ضد الوجود الإيراني والتأكد من ألّا تطال هذه الغارات مقرات نظام بشار الأسد. وتُفسر إيران هذا التنسيق بأنه ضوءٌ أخضر من روسيا للقوة الجوية الإسرائيلية لضرب وحداتها وميليشيات حزب اللّه.

وكشفت وسائل إعلام إسرائيلية يوم 29 أغسطس 2018م عن حصول اتفاقٍ بين تل أبيب وموسكو على إخراج كلِّ القوات العسكرية التابعة لإيران وحزب اللّه من الجنوب السوري مسافة 85 كم من مرتفعات الجولان الحدودية، والإبقاء على القوات السورية الحكومية فقط في تلك المنطقة، مقابل أنْ تتوقف إسرائيل عن استهدافها المواقع الإيرانية في سوريا. يؤكّد ذلك وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف، بقوله: «إنَّ القوات السورية الحكومية هي فقط من لديها حق البقاء في الجنوب، ويجب خروج أيّ قوات أجنبية أخرى،

(1) موقع «واللا» الإخباري الإسرائيلي، (أكتوبر 2015م)، تاريخ الاطلاع: 01 مايو 2020م، https://bit.ly/3gDhQWf.

وعلى إيران الالتزام بذلك»[1].

ترى إسرائيل، وكما كشف رئيس وزرائها بنيامين نتنياهو في أكتوبر 2019م، أنَّ الوجود الإيراني في سوريا مُهددًا لها، وأنَّ هناك مجموعة من المهددات الإيرانية في سوريا ستتعامل تل أبيب معها بكل حزم من خلال حرمان إيران من التوسع باتجاه الحدود الإسرائيلية فيً الجولان وفتح جبهة جديدة ضدها، إضافةً إلى الجبهة الجنوبية في غزة، وقطع خطوط الإمداد لشحنات الأسلحة المرسلة من إيران إلى حزب الله مرورًا بسوريا، وتدمير المنشآت الإيرانية في سوريا والمخصَّصة لتطوير دقة صواريخ حزب الله، ومنع إيران من تحقيق طموحها في إيجاد ممرٍّ بريٍّ يربطها بسواحل المتوسط في لبنان عبر العراق وسوريا، وإنهاء تهديد الصواريخ التي نشرتها إيران في سوريا ولبنان[2].

ووصل مستوى التنسيق إلى أنَّه في يونيو من العام 2019م، عُقدت في إسرائيل قمةٌ أمنيةٌ جمعت مسؤولين أمريكيين وروس وإسرائيليين، وخُصِّصت لبحث مستقبل سوريا، خرج بعدها الرئيس نتنياهو ليقول للصحافة: إنَّ «هناك اتّفاقًا إسرائيليًا- أمريكيًا- روسيًا على أنه يجب إخراج إيران من سوريا، لكننا نختلف على كيفيّة تنفيذ ذلك». وسبق وأنْ أعلن قبل ذلك، وبالتحديد في 19 فبراير 2019م، وزير الدفاع الإسرائيلي نفتالي بينيت عن انتقال بلاده من إستراتيجية الدفاع إلى إستراتيجية الهجوم ضد طهران. وأكّد أنَّ هدفه يكمُن في إخراج القوات الإيرانية من سوريا، وأعلن عن وجود اتّفاقٍ بين إسرائيل والولايات المتحدة مفاده أنَّ «تل أبيب تتحمّل المسؤوليةً عن مواجهة إيران

---

(1) موقع منشور، هل تتفق روسيا وإسرائيل على إخراج إيران من سوريا؟، (16 يونيو 2018م)، تاريخ الاطلاع: 31 مايو 2020م، https://bit.ly/3cmOfwA .

(2) معهد دراسات الأمن القومي الإسرائيلي، (01 يناير 2020م) ، تاريخ الاطلاع: 03 يناير 2020م، https://bit.ly/2TPiJAX.

في سـوريا، فيما تُعدّ واشـنطن مسؤولةً عن التصرف ضد الجمهورية الإسلامية في العراق»[1]. وبعد انتهاء الانتخابات الإسرائيلية في مارس 2020م الماضي تضاعفت وتيرة الهجمات الإسـرائيلية على المواقع الإيرانية في سـوريا، والتي اسـتهدفت مستشـارين وقيـادات إيرانية، ومواقـعَ لحـزب اللّه اللبنانـي، فـي الوقت الـذي بدأت فيـه الضغوط الأمريكيـة علـى إيران فـي العراق مطلع العام الجـاري مع مقتل قائد فيلـق القـدس التابـع للحرس الثوري الجنرال قاسـم سـليماني، قرب مطار بغداد. وفي هذا السياق، صدرت دراسةٌ استشرافية موسَّعة عن معهد دراسـات الأمن القومي الإسـرائيلي تضمَّنت توصيات للحكومة الإسـرائيلية الجديـدة التي بدأت أعمالها يـوم 17 مايو 2020م، حول الطريقـة المُثلـى للتعامل مع ملف التنسـيق مع روسـيا بشـأن تقليص النفوذ الإيراني في سوريا، وكان من ضمن التوصيات، ما يلي[2]:

أ- علـى الحكومـة الإسـرائيلية الجديدة أن تبذل جهـودًا إضافية لكي تُكثـف روسـيا مـن جهودهـا لتقليـص النفـوذ الإيراني العسـكري في سوريا.

ب- محاولـة التأثيـر علـى موسـكو لمراعـاة بناء قـوةٍ عسـكرية «غير متقدمة» للجيش السوري.

ج- العمـل علـى دفـع روسـيا لاسـتخدام نفوذهـا لفصل الميليشـيات الموالية لإيران عن أجهزة الأمن السورية.

د- المحافظة على آلية التنسيق مع الجيش الروسي لضمان استمرار حرية إسـرائيل في الحركة والعمل، وضمان عدم حدوث احتكاك مع الروس في الأجواء السورية.

---

(1) موقع جريدة الأنباء، التباين الروسـي الإيراني في سـوريا.. أسـبابه وأبعاده، (19 أبريل 2020م)، تاريخ الاطلاع: 30 مايو 2020م، https://bit.ly/2TXX4qo .

(2) التقييـم الإسـتراتيجي لإسـرائيل فـي 2020م: (تقرير محدّث) فـي (11 مايو 2020م)، تاريخ الاطـلاع: 01 يونيو 2020م، https://bit.ly/2TXM3Fs.

هـ- بلـورة صـورة مخابراتية مشـتركة مع روسـيا حول شـكل وطبيعة الأنشطة الإيرانية التخريبية ضد مصالح الدولتين.

هذه التنسيقات بين موسكو وتل أبيب كان من نتائجها أنَّ الدفاعات الجويـة الروسـية (S300) المنتشـرة فـي مناطق سـورية، لم تعترض الغـارات الجويـة الإسـرائيلية المتتابعـة ضـد التمركـزات الإيرانيـة، وقوافل السـلاح، ومخازن «حزب اللّه» في سـوريا، بل من وقتٍ لآخر أصبحت الطائرات الروسـية والإسـرائيلية تُنفّذ غاراتٍ مشتركةً ضد الميليشيات الإيرانية ووحدات حزب اللّه.

3- إدخال موسكو لواشنطن طرفًا في الأزمة السورية

يتعلَّق مصدر الانزعاج الإيراني الثالث من روسيا، هذه المرة بإدخال موسكو للولايات المتحدة الأمريكية كطرفٍ في الأزمة السورية. وتبدو طهـران غيـر راضيـة البتة عـن الاتفاقيَّات التي توصلت إليها روسـيا بالتعاون مع واشـنطن مبكرًا في 27 فبراير 2016م، بدءًا من اتفاقية وقف الأعمال العدائية في إدلب، وصولًا إلى مفاوضات مناطق خفض التصعيـد، رغـم أنَّ المندوب الإيراني في مؤتمر «أسـتانة- 6» أقسـم بأنه لن يتمّ اتفاق إدلب، وستعمل إيران على تخريبه[1].

تتوجَّس إيران أيضًا من تنامي التفاهمات الأمريكية-الروسـية تجاه مسـتقبل سـوريا ومصيـر الأسـد فـي الانتخابات الرئاسـية السـورية المقبلة في عام 2021م، ولا سيَّما بعد اتباع الروس إستراتيجية مغايرة تحمـل إشـارات لإمكانية التخلي عن الأسـد في المرحلـة المقبلة، إذ شـنَّت الأوساطُ الإعلاميَّة الروسـية هجومًا حادًّا على الأسد مُشكِّكةً في قدراته على الحكم، وتذبذب سيطرته وحمايته للمناطق المحررة

(1) موقع جريدة الأنباء، التباين الروسـي الإيراني في سـوريا.. أسـبابه وأبعاده، (19 أبريل 2020م)، تاريخ الاطلاع: 30 مايو 2020م، المرجع السابق.

مـن المعارضـة، وعدم إنجـازه تقدمًا في مِلـف الإصلاحات وصياغة الدستور.

وقد بيّنت نتائج الاسـتبيان الذي اسـتطلع رأي 1000 سـوريٍّ داخل مناطق النظام، في شـهر أبريل 2020م، وبحسـب ما أفادت به وكالة «ريـا فـان» القريبة مـن الكرملين أنَّ 31,4% يفضلـون بقـاء الأسـد، و41,3% لهـم رأيٌ سـلبيٌّ ومعارضٌ لـه، و27,3% يرفضون الإجابة، أو تهرّبوا منها[1].

يُدرك الروس أنَّ بقاء الأسـد في المرحلة المقبلة سيصطدمُ برؤية وتوجُّهـات الجماعة الدولية، فضلًا عـن إدراكهم صعوبة إعادة إعمار سـوريا بدون التنسـيق مع الولايات المتحدة الرافضة للدور الإيراني فـي سـوريا، ورفـض الإدارة الأمريكيـة الانسـحاب من حقـول النِّفط السورية، أو من قاعدة التنف الحدودية التي تُشكل تهديدًا لإيران[2].

وبـدت إيـران مقتنعـةً بـأنَّ الروس بـدأوا بالفعل في إعـداد خارطة طريق بالتنسـيق مع الغرب تضمنُ الإطاحة بالأسـد مقابل رفع العزلة الدبلوماسية والعقوبات الأمريكية عن سوريا والبدء في عمليات إعادة الإعمـار. تعلـم روسـيا أنه ومـن أجل النجـاح في سـوريا يتطلب منها تنفيـذ التزاماتهـا تجاه واشـنطن هناك، ومنها ضمان أمن إسـرائيل، وتنفيـذ قـرار مجلس الأمن رقم 2254، وكل ذلك يتطلب إخراج إيران من سوريا، وفكّ ارتباطها بها.

وتُدرك روسيا مسؤولياتها كدولة كبرى، ضمن قوى دوليَّة مُتنافسة، ولديهـا حسـاباتٌ إسـتراتيجيةٌ واقتصاديةٌ مختلفة عـن إيران، ولديها دروسٌ من التاريخ اكتسبتها من غزوها الدرامي لأفغانستان، أو تعلمته

(1) المعهـد الدولي للدراسـات الإيرانية (رصانة)، تقرير شـهر أبريـل 2020م، تاريخ الاطلاع: 28 مايـو 2020م، https://bit.ly/2zFIZID .

(2) موقع الحرة، «ضعيف ولا يتحكم بالوضع».. هجوم روسـي على الأسـد وحكومته، (17 أبريل 2020م)، تاريخ الاطلاع: 26 مايو 2020م، https://cutt.us/3N8Br.

مما كانت شاهدًا عليه أثناء حربها الباردة مع أمريكا وتخبُطها في «المستنقع الفيتنامي»، أو لاحقًا عندما غاصت في «الوحل العراقي»، ولذلك فموسكو تدرك جيدًا أنَّ العمليات العسكرية يجب أن تتوقف عندما تظهر في الأفق نافذةُ سلام ولو نسبي. لدى روسيا شعورٌ بأنها وصلت نقطة الذروة في سوريا، وتخشى «الوهن الإستراتيجي الكامل»، وهي مرهقة ماليًّا، في ظل التبعات الاقتصادية لجائحة «كورونا» المستجِّد وهبوط أسعار الطاقة، وأنه حان وقت الحصاد وتعويض الخسائر من مشاريع إعادة الإعمار في سوريا ومن الاستثمارات الواعدة فيها. لذلك هي الآن أشد حرصًا من ذي قبل في الدفع باتجاه تصميم حلف سياسيٍّ لإيجاد حلول سياسية، وإحياء محادثات السلام التي بدأت في كازاخستان. بينما يرى النظام الإيراني أنه لا يزال يحتاج مزيدًا من الوقت لتثبيت أقدامه أكثر في سوريا والحصول على موطئ قدم مُرض على كامل الرقعة السورية. كما يرى أنَّ مشروعه الطائفي سيذَّبُل مع السلام والاستقرار؛ لأنَّ الفوضى تُعَد بيئته المفضلة، كما زرعها في العراق وفي اليمن، وليس وجود الدولة ذات المؤسَّسات. وبات نظام طهران مقتنعًا أنَّ التسويات السياسيَّة ليست في صالحه في الوقت الحالي، وأنه يجب استمرار عسكرة الوضع السوري واستمرار العمليات سعيًا للتمدد على أكبر قدر من الجغرافيا السورية، خاصةً في الغُوطة الشرقية أو إدلب أو درعا.

ثُم أنَّ طهران لن تجد ما تُقنع به الشعب الإيراني الذي يتظاهر ويحتجُّ من وقتٍ لآخر مُطلقًا شعارات: «لماذا تُصرَفُ أموال الشعب الإيراني على مشاريع خارجية غير مجدية»! وبالفعل جنَّدت إيران ودربت وموَّلت ما يُعرف بقوات الدفاع الشعبي NDF وعددهم نحو

100 ألـف مقاتـلٍ شـيعيٍّ[1]، ويعملون تحت إشـراف القـوات الإيرانية منذ النشأة عام 2012م.

وتُشـير التقديـرات إلـى أنَّ عـدد المقاتليـن العسـكريين (التابعيـن للحرس الثوري) وغير العسكريين (من الذين جلبتهم إيران من الدول غير المستقرة من أفغانستان وباكستان والعراق وغيرها) بلغ نحو 20 ألـف مقاتـلٍ بينهـم نحو 2000 إيرانـيٍّ ما بين ضابـط وجندي، ونحو 7500 عنصـرٍ مـن حزب اللّه[2]، بينما قَدّرت منظمة «مجاهدي خلق» الإيرانيـة المعارضـة عددهـم بنحـو 70 ألـف مقاتـل، بينهـم 20 ألفًا مـن الميليشـيات العراقية ومثلهم مـن الأفغان، إلى جانب 7 آلاف من باكسـتان، ونحـو 10 آلاف مسـلحٍ من ميليشـيات حـزب اللّه[3]، ويُقدّر عـدد القتلـى من هـؤلاء المقاتليـن بـ 2000 قتيلٍ بمن فيهـم قياداتٌ كبيـرة فـي الحرس الثوري الإيراني[4]، وبالطبع فهي تنتظرُ من النظام السوري تعويضًا ماديًّا استثماريًّا عن كل هذا.

وهذا ما دعا عضو لجنة السياسة الخارجية في البرلمان الإيراني حشـمت اللّه فلاحـت بيشـه إلى التصريح في مايـو 2020م، بأنّ على إيـران اسـتعادة أموال شـعبها التـي أنفقتها على سـوريا، بالتزامن مع الواقـع الاقتصـادي المتدهور الذي تعيشـه البـلاد، فإيران أعطت ما بين 20 و30 مليار دولار للنظام السوري، ويجب استعادة هذه الأموال التي تعود إلى الشعب[5].

---

(1) Seth G. Jones, War by Proxy: Iran's Growing Footprint in the Middle East, CSIS, Accessed on: June, 10,2020, https://bit.ly/2zljOK3.

(2) -חדשות מדיני ביטחוני، הצמרת הביטחונית דוחפת לקו התקפי מול איראן בסוריה، הארץ، (09 أبريل 2018م)، تاريخ الاطلاع: 01 يناير 2019م، goo.gl/VaUZj3.

(3) شـبكة شـام، منظمة إيرانية تكشـف وجود 70 ألف مقاتلٍ من الميليشـيات الايرانية في سـوريا، تاريخ الاطلاع: 10 فبراير 2020م، https://bit.ly/2XR3Lv1.

(4) BORZOU DARAGAHI, Iran Wants to Stay in Syria Forever, foreign policy, (01 June2018), Accessed on: 14 Feb 2019, https://bit.ly/2kMFzHx.

(5) المرجع السابق.

ومن خلال التحليل السابق يتّضح حجم الخلافات السياسيَّة بين موسكو وطهران حول ما تراه إيران إقصاءً لها من تفاهمات موسكو مع أطراف إقليميَّة ودوليَّة. مع ذلك يبقى الخلاف الأكبر حول مصير الرئيس السوري بشار الأسد. فروسيا لا تهتمُّ كثيرًا بمصير الأسد، وبقاؤه ليس جوهريًا، كما أسلفنا، بل ربما يكون رحيلُه أفضل للكرملين الذي يُدرك مدى الضغوط التي يقوم بها الإيرانيون عليه وعلى طائفته العلوية، وأنَّ خضوعه للشروط الإيرانية ووفاءه بمتطلباتهم سيكون على حساب المكتسبات الروسية من الكعكة السورية.

وعلى العكس من موسكو، ترى إيران بدورها أنَّ بقاء الأسد هدفًا أساسيًّا لها، فهو بالنسبة إليها خطًا أحمر؛ لأن أي انتخابات حرة في سوريا تعني وصول حكومة سُنية إلى سُدة الحكم، بحكم الأَغلبية السُنية في سوريا التي تبلغ 76,1%، مقابل 11 تقريبًا % للطائفة العلوية و0,4% شيعة. وحتى لو افترضنا أنَّ الدستور سيكون مبنيًّا على قواعد طائفية ومحاصصة سياسية كدستور العراق أو لبنان، فهذا يعني أيضًا دستورًا يكتبه المشرّعون السُنة أو العلمانيون، وفي كلا الحالتين يعني تقلّص الدور الإيراني، ليس فقط في سوريا بل وربما في لبنان.

ثانيًا: خلافاتٌ حول بقاء الميليشيات الإيرانية

تكمن طبيعة الخلاف الثاني في رغبة روسيا في الحد من الميليشيات في سوريا، بينما إيران مستمرةٌ في تعزيز حضورها المسلح لفرض واقعٍ مكافئٍ للوجود العسكري الروسي.

ضغطت موسكو على دمشق لتمرير بعض المطالب ومنها إعادة هيكلة المؤسَّسات الأمنية والسيادية؛ بهدف إقصاء القوات الموالية لإيران في سوريا للحد من تأثيرها، وتوحيد الولاءات في

الجيش السـوري لصالح روسـيا، وفيما يبدو أنه ينسجم مع المطالب الإسرائيلية.

ويبدو أنَّ هناك تقابلًا في الآراء بين موسكو وواشنطن حول الحدّ من ظاهرة الميليشـيات العسكرية، فقد قال المبعوث الرئاسي الأمريكي ومسؤول الملف السوري جيمس جيفري: إنَّ بلاده تدعم «بكل الطُرق الممكنـة»، دبلوماسـيًا ولوجسـتيًا، الغـارات الإسـرائيلية علـى مواقعَ إيرانية في سوريا، لافتًا إلى وجوب خروج جميع القوات الأجنبية التي لـم تكُـن موجودةً قبـل 2011م بما فيها التركيـة والإيرانية والأمريكية باسـتثناء الروسـية[1]! ، ولاحقًـا، طلـب الرئيـس الروسـي فلاديميـر بوتيـن فـي مايـو 2018م كافة القـوات الأجنبية بمغادرة سـوريا، وكان يقصد الميليشيات الموالية لإيران، وقام الطيران الروسي باستهداف القـوات الإيرانيـة فـي مدينة حمـص وقصف أكثر من مـرة، تجمعات لحـزب اللّه فـي حلب وفي بلـدات نُبّل والزهراء وحماه[2]. وسـبق وأنَّ أكد تقريرٌ صادرٌ عن المعهد الدولي للدراسات الإيرانية «رصانة» أنَّ العلاقـات بين روسـيا وإيـران دخلت مرحلةً أكثـر تصدُّعًا منذ اندلاع الاشتباكات المسلحة بين الفرقة الرابعة السورية بقيادة ماهر الأسد -الموالـي لإيران- والفرقة الخامسـة السـورية -الروسـية بقيادة قائد قوات النمر اللواء سـهيل الحسـن -الموالي لروسـيا- في يناير 2019م في سـياق الصراع على السـيطرة والنفوذ في المناطق الحيوية بريف حماة الشمالي الغربي.

وفـي مايو 2019م، ضغط الروس على الأسـد لإعادة هيكلة الفرقة الرابعة والمؤسَّسات التابعة لها كهيئة الأركان العامة، وشعبة التنظيم

(1) موقع جريدة الشـرق الأوسـط، جيفري: روسيا تعرف طبيعة حليفها السوري.. وعقوباتنا تضغط على «الحلقة الضيقة»، (02 مايو 2020م) تاريخ الاطلاع: 29 يونيو 2020م، https://arbne.ws/3cmOGHe .

(2) موقـع العربية، بوتين: نهدف لانسـحاب جميع القوات الأجنبية من سـوريا، (03 أكتوبـر 2018م)، تاريخ الاطلاع: 30 مايو 2020م، https://bit.ly/2XRkgYH .

والإدارة، وقيادة الأمن العسكري والاستخبارات العسكرية والحرس الجمهوري؛ لتوحيد الولاءات في يد موسكو بما يضمنُ كسر شوكة الفرقة الرابعة التي تُعَد من أكثر الفرق السورية تجهيزًا وتسليحًا، وتُسيطر على مناطق ومفاصل الدولة السورية، والأكثر قربًا من إيران بحكم تكوينها الطائفي. وبالفعل وبناءً على الطلب الروسي، تمّ إحالة بعض ضباط النظام السوري للاعتقال وللمحاكمات بحكم الفساد وتمّ عزل بعضهم ونقل بعضٍ من ضباط وجنود فرقة ماهر الأسد لوحدات عسكرية أخرى[1].

وعاد التوتر مجددًّا بين الوحدات العسكرية الروسية والإيرانية عقب الاشتباكات بين القوات الروسية من جهة، والميليشيات الموالية لإيران في مطار مدينة حلب السورية في شهر مايو 2019م. وكانت الشرطة العسكرية الروسية قد شنَّت هجومًا ضد مسلحين مدعومين من إيران، كانوا متمركزين في مطار حلب الدولي؛ ما أدى إلى سقوط قتلى وإصابات داخل صفوف الميليشيات الإيرانية التي كانت متواجدةً في مطار حلب، بعد اشتباكات اُستُخدمت فيها أسلحةٌ ثقيلة ومتوسطة. وعقِب الهجوم، اعتقلت الشَرطة العسكرية الروسية عددًا من زعماء المِيليشيات الإيرانية، فيما عُدَّ حلقةً أخرى ضمن توترات القوات الإيرانية والروسية في سوريا[2].

من جانبٍ آخر، وفي سياق إضعاف سيطرة إيران وتأثيرها على المجتمع السوري وعلى أجهزة ميليشيا أسد العسكرية والأمنية، طالبت روسيا، الأسد في أبريل 2020م، تحت ذريعة فيروس «كورونا» المستجِّد، بإعادة توزيع التشكيلات القتالية الموالية لروسيا بشكلٍ

(1) المعهد الدولي للدراسات الإيرانية (رصانة)، تقرير شهر أبريل 2020م، تاريخ الاطلاع: 28 مايو 2020م، https://bit.ly/2yOuhgC .

(2) موقع الحرة، صراع نفوذ.. توتر بين روسيا وإيران بسوريا، (28 مايو 2019م)، تاريخ الاطلاع: 30 مايو 2020م، https://arbne.ws/3eFGun0 .

منفصل عن التشكيلات الموالية لإيران. كما أزالت القوات الروسية المتواجدة في مدينة الميادين بريف دير الزور الشرقي، الرايات واللافتات التابعة للميليشيات الإيرانية ضمن منطقة شارع الكورنيش ودوار البلعوم بالمدينة، فيما أبقت على العلم السوري المعترف به دوليًّا بالإضافة إلى وضعها صورًا للرئيس بوتين ونُصِب العلم الروسي بجانبه[1].

ويسعى الروس إلى بناء الجيش السوري وإعادة مأسسته؛ لأنه المؤسَّسة القادرة على ترسيخ السلام الذي تراه روسيا؛ ولأنه عاملٌ مساعد لاستقرار النفوذ الروسي على المدى الطويل، بوصفه مؤسَّسةً خاضعةً دستوريًّا للسُلطة السياسية. وعلى العكس من ذلك، ترى إيران أنَّ الجيش النظامي مصدرُ خطرٍ على وجودها في سوريا، فالجيش الوطني المُستقل والمتحرِّر من التأثيرات الإيرانية، سيتصادم معها، وسيرفض عمل ميليشياتها، ومشاريعها للتغيير الديمغرافي[2].

مع أنَّ روسيا لا تؤيّد توسع الميليشيات في سوريا، وأن يكون الجيش السوري هو من تُوكَل له المهام القتالية ضد المعارضة، إلّا أنّها اضطرت لإنشاء ميليشياتها الموالية لها ردًا على توسع نفوذ الميليشيات التابعة لإيران. سعيُ إيران إلى تكرار تجربتها في العراق في بناء ميليشيات طائفية مسلحة في سوريا، دفع بروسيا إلى مجاراتها وتشكيل عددٍ من الميليشيات في مناطق سورية عدة منها: قوات النمر، صقور الصحراء، صائدو الدواعش، لواء القدس الفلسطيني، ميليشيا العساسنة، آل بري، والفيلق الخامس الذي يتألف من 25 ألف جنديٍّ مكونة من أفراد المصالحات في الجنوب السوري،

(1) المرصد السوري لحقوق الإنسان، القوات الروسية تطمس الوجود الإيراني في الميادين وترفع راياتها وصور بوتين، (25 أبريل 2020م)، تاريخ الاطلاع: 28 مايو 2020م، https://bit.ly/3cp6yRU .

(2) موقع مركز الإمارات للسياسات، صراع نفوذ صامت روسي-إيراني في سوريا، (31 مارس 2020م)، تاريخ الاطلاع: 01 يونيو 2020م، https://bit.ly/2ZZtvZp .

وأشرفت موسكو على تدريبه وإعداده بالكامل[1]، وأصبحت أغلب هذه الميليشيات التابعة لموسكو ولطهران تتمتع بسلطاتٍ واسعة خوَّلت لها احتكار الخدمات الرئيسة التي تمسُّ حياة الناس بدءًا من المخابز والمياه والوقود والنقل والمستشفيات العامة، لتزيح بذلك سلطة آل أسد عن المشهد، حتى أصبحت هذه المجموعات المسلحة تتقاسم العائدات المالية مع الأجهزة الأمنية التابعة لميليشيا أسد. وقد ذكر مصدرٌ إعلاميٌ إيراني أنَّ موسكو طالبت الأسد بأن يسعى لكي يعتمد على نفسه بدرجة أكبر؛ لأن مسألة الدعم التي يقوم بها الجيش الروسي يُفترض أن تكون مؤقتة ولن تستمر طويلًا. فإيران وروسيا لديهما العديد من المستشارين في المؤسَّسات الأمنية السورية ولكن بقاءهما سيُقابلُ بحالة من التحديات بينهما[2].

ورغم الغارات الجوية الروسية والإسرائيلية ضد الميليشيات الإيرانية والتابعة لها لم تُثنِها من تعزيز مواقعها العسكرية والتزود بصواريخ وأسلحة جديدة في سوريا لفرض واقع عسكريٍّ يؤثر على التوازنات السياسية التي لا تسير في مصلحتها، حيث عززت إيران من شحن صواريخها إلى سوريا من خلال الميليشيات المسلحة الموالية لإيران تحت إشراف فيلق القدس التابع للحرس الثوري الإيراني، من خلال حفر الأنفاق من العراق إلى سوريا على الشريط الحدودي العراقي، وذلك لنقل الصواريخ والطائرات المسيرة إلى الميليشيات الموالية لها في سوريا إلى قاعدة الإمام علي السورية من خلال الأنفاق، وبعضٌ منها يُنقَل إلى حزب اللّٰه في لبنان. وتهدفُ إيران من خلال تعزيز عسكرة المجموعات الشيعية في سوريا إلى

(1) موقع أورينت، هكذا تتنافس روسيا وإيران على المناطق الإستراتيجية في سوريا، (15 يناير 2020م) تاريخ الاطلاع: 30 مايو 2020م، https://bit.ly/2MkjHRP.

(2) ایران و روسیه در نهایت در سوریه با یکدیگر به اختلاف می‌خورند؟، اقتصاد نیوز، تاریخ الاطلاع: 30 مايو 2020م، https://cutt.us/3gVSH.

فرض واقع عسكريٍّ يُغير من قواعد اللعبة التي ترى أنَّ روسيا تلعبها مع حلفائهاً بمعزلٍ عنها[1].

رصدت دراسةٌ مهمة نشرها مركز «حرمون للدراسات المعاصرة» أماكن وجود القواعد الإيرانية على امتداد الجغرافيا السورية، وكشفت عن أنواع الأسلحة التي تمتلكها الميليشيات الإيرانية أيضًا. وتُعَد قاعدة الإمام علي أكبر القواعد العسكرية الإيرانية التي بنتها إيران في سوريا، وأكثرها أهمية جيو-إستراتيجية، خاصةً أنها قريبة من الحدود العراقية كثيرًا، وتستطيع خدمة أهداف إيران في البلدين؛ لقربها من معبر القائم الحدودي الذي سيُشكل نقطةً مهمة لنقل الأسلحة والصواريخ إلى سوريا. شُيدت هذه القاعدة لتستوعب آلاف الجنود والقوات التابعة لهم، وأشرف على بنائها «فيلق القدس» التابع للحرس الثوري الإيراني، وهذه أول قاعدة تقوم بإنشائها إيران بكاملها من الصفر. وتبعد هذه القاعدة عن قاعدة التنف الأمريكية 320 كم، وتضمُّ 15 نقطة عسكرية، بينها 10 نقاط تحوي عددًا من مخازن السلاح، وساحاتٍ لتدريب المقاتلين، إضافةً إلى عدد من المقار العسكرية للميليشياتٍ المدعومة من إيران، وعلى رأسها الحرس الثوري وميليشيا فاطميون، بالإضافة إلى خمس نقاط أخرى تحوي منصات إطلاق صواريخ متطورة[2].

وفي وقتٍ سابق، ضغطت إيران على النظام السوري لفتح النقاش مع روسيا حول إمكانية إنشاء قاعدة جوية في منطقة القلمون وأخرى بحريَّة في بانياس توضعان تحت تصرف إيران، على غرار قاعدتي طرطوس وحميميم اللتين يستخدمهما الروس، لكن الروس رفضوا

(1) موقع العربية، صراع الموانئ في سوريا.. روسيا وإيران و«عقدة بانياس»، (20 أبريل 2020م) تاريخ الاطلاع: 30 مايو 2020م، https://bit.ly/2Bfwq5S .

(2) للمزيد، انظر، مركز حرمون للدراسات المعاصرة، القواعد العسكرية الإيرانية وبدايات تدخلها الأمني والعسكري في سورية، (16 مايو 2020م)، تاريخ الاطلاع: 30 مايو 2020م، https://bit.ly/2yVnL82 .

ذلـك مُتذرعيـن بالرفض العالمـي لإيجاد موطئ قـدم للإيرانيين في المتوسط، وذلك في الوقت الذي لا تُحبِّذ فيه موسكو أيّ إجراءٍ يُمكن أن يعزز النفوذ الإيراني في سوريا ويدفع طهران إلى المطالبة لاحقاً بحصـةٍ ودورٍ ومشـاركةٍ فـي صياغـة التسـوية المنتظـرة، والتي تريد روسيا وضعها مع الأمريكيين والأتراك[1].

ثالثًا: الصراع على الاقتصاد وتقاسم الثروة في سوريا

يتعلَّـق مجـال الخلاف الثالث بين طهران وموسـكو بتعـارض الطموح الاقتصـادي بينهمـا فـي سـوريا. ترى إيـران أنَّ روسـيا أخذت نصيب الأسـد؛ وهو ما جعل طهران تطالب بتعويضاتٍ ماليَّة واسـتثماريَّة في مقابل الأثمان المالية والبشـرية التي دفعتها من أجل تثبيت سـيطرة النظـام ودحـر المعارضـة. ففـي 27 مـارس 2018م، صـادق مجلـس الشـعب السـوري على عقدٍ يسـمح للشركة الروسـية «ستروي ترانس غاز»، بحقّ استثمار واستخراج الفوسفات في منطقة مناجم الشرقية (45 كـم جنوب غرب تدمـر) ضمن قطاع يبلغ الاحتياطي المثبّت فيه 105 ملاييـن طـن، كمـا أعطى روسـيا حق اسـتثمار مينـاء طرطوس والأراضي المحيطة به لمدة 50 عامًا[2].

وفي المقابل، وحتى لا تغضب طهران، وقّع النظام السوري عقودًا تسمح للإيرانيين كذلك باستخراج الفوسفات، وتم منحهم خمسة آلاف هكتار من الأراضي الزراعية وألف هكتار لبناء المنشـآت والمصافي النِّفطية. وفي شـهر مايو 2020 تم منح إيران عقد لاسـتخراج النفط على الحدود السورية – العراقية، بالإضافة إلى منحها رخصة تشغيل

(1) موقـع العربية، صراع الموانئ في سـوريا.. روسـيا وإيـران و«عقدة بانياس»، (20 مايـو 2020م) تاريخ الاطلاع: 30 مايو 2020م، https://bit.ly/2UdNZKv .

(2) موقع شبكة الحرية، الصراع على الثروة السورية بين إيران وروسيا: الفوسفات نموذجًا، (23 يوليو 2018م)، تاريخ الاطلاع: 28 مايو 2020م، https://bit.ly/3cmryJ8 .

الهاتف المحمول، وذلك بناءً على خمس مذكرات تفاهم وقعها رئيس الوزراء السوري خلال زيارته طهران في 17 يناير 2019م، وحق الإفادة من ميناء اللاذقية ومصفاة حِمص كي يكون لإيران موطئ قدم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في ميناء اللاذقية. وتريد إيران أنْ يكون مرفأ اللاذقية هو المحطة الأخيرة في مسار السكة الحديدية الواصل بين إيران وسوريا عبر العراق والذي يمر في محافظة دير الزور. وكان مدير شركة خطوط سكك الحديد الإيرانية سعيد رسولي قد أكد خلال لقاءٍ مع نظيريّه السوري والعراقي، أنَّ خط السكك الحديدية سينطلق من ميناء الإمام الخميني في إيران مرورًا بشلمجة على الحدود العراقية ومدينة البصرة العراقية ليصل إلى ميناء اللاذقية[1]. والمؤكد أنَّ وجود إيران بجانب القاعدة العسكرية الروسية في طرطوس يُشكل قلقًا لروسيا وهو ما قد يعرّض قواتها للخطر في حال حدوث أيّ توتر كبير بين إيران وإسرائيل أو بين إيران والولايات المتحدة الأمريكيّة. وتريد روسيا أنْ تكون صاحبة القوة الرئيسة على الساحل الشرقي للمتوسط دون منافسٍ أو معرقل.

وترغب إيران من خلال هذه المشاريع في البنية التحتيّة السورية، في الاستيطان بعيد المدى في سوريا. فمُنذ بداية الأزمة السورية تقوم شركاتٌ وجهاتٌ محسوبة على الحرس الثوري بشراء عقاراتٍ في دمشق وخاصة في المنطقة المعروفة باسم «المدينة القديمة» للعاصمة، وإعادة السيطرة على العديد من المناطق المحيطة بالعاصمة، وإنشاء مزارع لتربية الحيوانات. وفي مارس 2019م، وعدت شركة إيرانية ببناء 200 ألف وحدة سكنية في سوريا معظمها في دمشق، كما عززت الميليشيات الموالية للنظام الإيراني قبضتها

(1) موقع المرصد الإستراتيجي، تنامي الخلاف الروسي-الإيراني في سوريا، تاريخ الاطلاع: 30 مايو 2020م، https://bit.ly/3clN1lt .

على المزارات الشيعية في دمشق وحمص، في عملية توطين ممنهجة تتزامن مع عمليات التغيير الديموغرافي الجاري في البلادً[1]. فمنذ مئات السنين، كان غالبية سكان العاصمة السورية من السُنة، ولكن في السنوات الأخيرة، انتقل العديد من الشيعة الإيرانيين والأفغان والسوريين إلى هذه المدينة. كما فر العديد من المسيحيين وغيرهم من السكان غير المسلمين من البلاد خلال الحرب. فعلى سبيل المثال، باع العديد من المسيحيين السوريين ممتلكاتهم للطائفة الشيعية السورية الصغيرة وهذه الطائفة معروفة بعلاقاتها الاقتصادية الوثيقة مع إيران.

قبل عام 2011م، وعلى الرغم من مرور 30 عامًا من التحالف الإستراتيجي بين إيران وسوريا، إلَّا أنَّه لم تكن هناك إلَّا القليل من المعاملات التجارية بين البلدين لعدم وجود حدود برية، ولكن ذلك تغير منذ الثورة السورية. فقد أقرضت إيران سوريا 5,6 مليار دولار على الأقل خلال الـ10 سنوات الماضية، وتم إنفاق كل هذه الأموال تقريبًا على استيراد النفط الخام والمنتجات البترولية الأخرى، والمعدات والآلات من إيران. ووفقًا لتقديرات أحد مراكز البحوث في دمشق، في عام 2017م استوردت سوريا بقيمة 1,3 مليار دولار من إيران. ومن ناحية أخرى، قامت سوريا بتصدير سلع بقيمة 13 مليون دولار فقط إلى إيران في نفس العام، وهو أقل 100 مرة وما يعادل أقل من 2% من صادراتها[2].

وتستند العلاقة الاقتصادية بين البلدين إلى خطوط الائتمان الثلاثة (وخط الائتمان هو مصطلح اقتصادي والميزانية مخصصة لإقراض

(1) موقع جريدة الأيام، عن الغزو العقاري الإيراني لسورية، (30 مايو 2020م) تاريخ الاطلاع: 30 مايو 2020م، https:// bit.ly/2MjAUus .

(2) عزيزى، آرش، ايران‌واير، رقابت نفس‌گير؛ ماراتن ايران و روسيه بر سر منافع خود در سوريه، (13يونيو 2020)، تاريخ الإطلاع 14يونيو 2020. https://bit.ly/3fjH3Dx

الحكومة والتجارة والأشخاص الحقيقيين) التي منحتها إيران لسوريا على مدى العقد الماضي. وكان أكبرها في يوليو 2013م بقيمة 3,6 مليار دولار، مع التركيز على بيع النفط والمنتجات البترولية. وقد تم منح خطين ائتمانيين آخرين بقيمة مليار دولار لكل منهما. وفي مجال الكهرباء، حصلت الشركة القابضة «مجموعة مبنا» الضخمة في طهران على ثلاثة عقود لبناء محطات إنتاج الطاقة في تشرين وحمص واللاذقية. يحتوي تقرير موقع «تقرير سوريا» على بعض المعلومات المثيرة للاهتمام حول هذا الأخير: «إن بناء محطة كهرباء اللاذقية هو مشروع بقيمة 411 مليون دولار بدأ عام 2019م، وكان من المقرر أن يكتمل في غضون ثلاث سنوات؛ ولكن نقص السيولة في كلا البلدين جعل من غير المرجح أن يمضي هذا المشروع قُدمًا[1].

وعلى كل حال، وكما صرحت به بعض الصحف الإيرانية، فإنَّ الروس يعملون بذكاء في سوريا ويدركون أنَّ مكانة الأسد أصبحت هشَّة، وأنَّ سوريا أصبحت مدمرةً سياسيًّا واقتصاديًّا، وتبلغ تكلفة إعادة إعمارها حوالي 200 مليار دولار، في وقت ما زالت أجزاءٌ من الأراضي السورية، حتى اليوم، تُقام فيها المظاهرات والمسيرات المناهضة للرئيس الأسد، بما يعني أنَّ الروس مدركين أنَّ عملية الاستقرار في سوريا وفي ظل وجود الأسد سيُعتبر أمرًا صعبًا[2]. وهذا ما يدفعُ بروسيا لتوقيع اتفاقيات اقتصادية واستثمارية طويلة المدى مع الحكومة السورية، تحسبًا لمغادرة الأسد للسلطة، ولكي تضمن عائدًا مُجزيًا يكافئ على الأقل ما أنفقته منذ بداية الأزمة.

وأمام كل هذه العقبات تُدرك روسيا أنَّ إيران لن تكون مِعول

---

(1) المرجع السابق

(2) ایران و روسیه در نهایت در سوریه با یکدیگر به اختلاف می‌خورند؟، اقتصاد نیوز، تاریخ الوصول: 30 مايو 2020م، مرجع سابق.

استقرار اقتصاديٍّ وتنمية في سوريا، والأهم أنها لن تُساهم كثيرًا في عملية البناء؛ بسبب العقوبات المفروضة على شركاتها، ووضعها الاقتصادي الهشّ. فهي جاءت إلى سوريا لتفرض حضورها العسكري والأمني والعقدي، وليس هدفها تنمية سوريا. وإذا كانت لم تُعِر اهتمامًا للتنمية في داخل إيران فكيف تساهم في بناء دولة عربية! ولهذا فروسيا تُمهد، وتُسوق ذلك أمميًا، بأنها هي من سيُشرف على إعادة عملية إعمار سوريا، وتجميع المانحين والتنسيق بينهم. مجرد وجود إيران في مشروع إعادة الإعمار لن يكون مقبولًا ولا مُتحمسًّا له من قِبل الدول المانحة، وخاصةً من دول الخليج العربي، ربما باستثناء قطر.

رابعًا: التنافس على توظيف المكانة الجيو-سياسية والجيو-ثقافية لسوريا

الخلاف الجوهري الأكثر تأثيرًا ربما بين الروس والإيرانيين هو خلافٌ جيو-سياسي، تفرضه مكانة سوريا الجغرافية والتاريخية، بوصفها الميناء الأقرب إلى أوروبا بالنسبة للبر الإيراني، والمعبر الضروري لوارداتها من الطاقة إلى أسواق أوروبا، التي تحاول روسيا احتكارها، وبالتالي تضع العراقيل أمام «الممر البري» الذي تسعى إيران لإنشائه؛ بهدف الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط.

في المنظور الجيو-إستراتيجي تسعى موسكو للحصول على توافقٍ دوليٍّ، وخاصةً أمريكي وإسرائيلي، يضمن لها مكانةً في نظام عالميٍّ جديد قيد التبلور، تسعى روسيا لأنْ يكون متعدد الأقطاب ولكي يُفقد الولايات المتحدة هيمنتها الأحادية عليه. وموسكو تدرك أنَّ حضورها في سوريا سيُضيف لها قيمةً إضافية جديدة في التوازنات الإستراتيجية الدولية، وربما تطمح لأنْ تشارك الولايات المتحدة

والاتحاد الأوربي كأحد رعاة السلام بين العرب والإسرائيليين. ولتعزيز هذا التوجه، ستُواصل موسكو بناء قواعد عسكرية دائمة في طرطوس، وحتمًا سيكون لها مناطق نفوذ على المتوسط، مما سيُغير من لعبة التوازنات وربما من قواعد الوضع الراهن (quo Statu) في الشرق الأوسط.

ومن المنظور الإستراتيجي الروسي الجديد، يُلاحظ أنه بعد أن تُحرز روسيا تمكينًا في سوريا، تنوي استكمال مثلثها الإستراتيجي الذي تسعى لبناء ركيزتيه الأخرتين في ليبيا وجنوب اليمن، بما سيُعزز من بقائها في المياه الدافئة، والبقاء على تماسٍّ دائم باللاعبين الكبار في صراع النفوذ الدولي.

فالمياه الدافئة وبالتحديد شواطئ المتوسط، كانت حلمًا لقيصر روسيا بطرس الأكبر (1672-1725م) الذي كان أول من بنى أكبر أسطولٍ روسيٍّ وبنى جيشًا قويًّا. ويبدو أنَّ بوتين الذي يتمتع بعقل قيصريٍ وقلبٍ شيوعي يُحقق بثبات حُلم قيصره. ورغم هذا فروسيا تسلك المنهج البراغماتي وليس لديها أيديولوجية مذهبية تريد فرضها، كما كانت الشيوعية خلال حقبة الاتحاد السوفيتي، كما أنّها لن تقبل بأن يقود «الإسلام السياسي» مستقبل سوريا، وتُفضِّل عليه النظام العلماني الصرف.

وفي المقابل، لدى إيران طموحٌ جيو-إستراتيجي أيضًا، لكن ينطلق من مقاربة إقليمية دفاعية وأمنية ممزوجة بصبغة مذهبية-قومية. تقع سوريا، من منظور المجال الحيوي الإيراني، ضمن خطوط الحماية والدفاع التي تبدأ من إيران كخط دفاع أول ثُم خط الدفاع الثاني متمثِّلًا في العراق وصولًا إلى سوريا كخطٍّ دفاع ثالث. السيطرة على الشريط الإقليمي السوري العراقي ستجعلها على تماسٍّ مع «خصمها»

إسـرائيل ومـع أذرعها حركة حمـاس والجهاد وحـزب اللّه. أما الغاية الأبعـد مـن ذلك فإنهـا تُخطط لإقامة هلالها الشـيعي كحاجزٍ ثقافيٍّ وجغرافيٍّ يفصل بين العمق العربي في جنوب الجزيرة العربية والدول العربية في شمالها. وهي تقوم بتنفيذ ذلك وفي عينها محاصرة الدور السـعودي وعزلـه عـن أي دورٍ مسـتقبليٍّ فـي العراق وسـوريا ولبنان، وطمعًا في أن يؤدي ذلك إلى تحقيق حلمها بتشـظي المكون العربي-السُني، وإحلال المكون الفارسي-الشيعي بديلًا عنه!

فـي الأفـق الإسـتراتيجي الإيرانـي يمكن الاسـتقراء بأنهـا تُخطط لتحويـل الصـراع «العربي-الإسـرائيلي» كقضيـة ترتكز علـى القومية العربية والمذهبية السـنية إلى صراع «إيراني-إسـرائيلي» تصبح فيه القومية الفارسية والمذهبية الشيعيةً روافعها الجديدة وولاية الفقيه مرجعيتها الوحيدة. وهي تأمل أن تُحقق من وراء ذلك مكاسبَ ونقاطًا جيو-سياسـية تضـاف إلى رصيد «محـور المقاومـة والممانعة» الذي طالمـا تغنَّـى به وردَّده خطابهـا الأيديولوجي. وستسـعى، أيديولوجيًّا، لاسـتثمار هـذا المفهـوم الصراعـي الجديد من خلال شـعار «تحرير المسـجد الأقصى» مؤمِّلةً أن تتزعم الأمة الإسـلامية، وتحقق حُلمها الثـوري بنـزع هـذه المكانـة المعنوية والروحيـة عن المملكـة العربية السـعودية وإضعـاف رصيدهـا المعنـوي والروحي وإسـقاط رمزيتها كخادمة وحامية للحرمين الشريفين. وعلى المستوى الدولي، نجاحها فـي تحقيـق هـذا المفهـوم الصراعـي الجديـد، يعنـي توظيفـه فـي مقايضاتهـا وسـجالاتها مع الغرب وإسـرائيل، حتى يُعتـرف بها لاعبًا إقليميًّـا رئيسًـا، وبمذهبهـا كمكونٍ ديني في نطاق حـوار الحضارات. وتأملُ إيران تحقيق تلك الرؤية باستخدام أساليبها التي درجت عليها وهـي المُتمثِّلـة في «التفكيك وإعادة التركيـب»؛ تفتيت البنى الثقافية

والعرقية للدولة السورية، كما فعلت في العراق، والتركيب التدريجي للدولة الطائفية التي تُدين لولاية الفقيه.

وتعلم إيران أنَّ روسيا وليست سوريا هي التحدي الأول أمام طموحها الجيو-سياسي، وتخشى طهران من استفراد روسيا بتشكيل مستقبل سوريا وصناعة عملية سلام على مقاسها، بالاتفاق مع أمريكا وتركيا والدول العربية، وهذا مَّن شأنه تحطيم كامل البنية التي صنعتها إيران على مدار سنوات واستثمرت فيها. وتعتقد إيران أنها مَنَحت روسيا فرصةً لتحسين موقعها في سُلَّم النظام الدولي، ليس فقط عبر دعوتها للتدخل في المعترك السوري، ولكن عبر بذل أقصى مجهودٍ لإنجاح هذه المهمة، فقد وفَّرت الميليشيات والقوات البرية، ودفعت ثروات هائلة للحيلولة دون إسقاط النظام والإبقاء على مؤسَّسات الدولة، وحصدت روسيا نتائج كبيرة بتكلفة قليلة[1]. ولذلك فهي تنتظر أن ترُد لها روسيا الجميل وأن تدخلها طرفًا أساسيًا في كل التفاهمات والاتفاقيات التي تجري حول سوريا.

جيو-ثقافيًا، ولأنَّ التعليم هو محور الهُويَّة، تشُنّ إيران وعلى مدار تسع سنوات، حربًا ناعمة على سوريا من خلال السيطرة على المدارس السورية، وتغيير المعتقد السُني، بل إنها عمدت إلى استهداف المدارس والجامعات وتدمير العديد منها؛ بهدف أن تتولى ترميمها وإعادة بنائها، ووضع إدارتها تحت سوريين من الطائفة العلوية والشيعية التي تُعوِّل عليهم بنشر المذهب الشيعي بين الطلبة وبثّ أفكار ولاية الفقيه.

ويتم ذلك من خلال الاتفاقيَّات التعليمية والثقافية بين البلدين، التي وصلت إلى 11 اتفاقية، آخرها في نهاية شهر يناير 2020م.

---

(1) موقع مركز الإمارات للسياسات، صراع نفوذ صامت روسي-إيراني في سوريا، مرجع سابق.

وفي وقت مبكر في عام 2014م، أصدر الرئيس السوري بشار الأسد مرسـومًا بتدريس المذهب الشـيعي في المدارس السورية إلى جانب السُـني. كما تسـعى طهران إلى نشـر اللغة الفارسـية بين السـوريين لتكـون اللغـة الثانيـة لهم، ونجحـت طهران فـي افتتاح أول قسـم للغة الفارسـية في جامعة دمشـق، تلتها جامعتا حِمص وحلب، وتبعهاً عددٌ كبيـر مـن الجامعات السـورية في دير الزور وطرطـوس. وفي محاولة للسـيطرة علـى تفكيـر الطـلاب والأطفال، تم إنشـاء كشـافة المهديً فـي 2014م، وهـي تابعـةٌ لجمعيـة الإمـام المهدي في مدينة السـيدة زينـب، وتتركز أغلـب مبادئها على غرس المفاهيـم الثقافية والدينية وعبارات الثورة الإيرانية في أذهان الأطفال. وبالنسبة لنشر المذهب الشـيعي، فإنَّ طهران تتوسـع في إنشاء الحسـينيات، فقد بلغ عددها في منتصف 2019م، نحو 500 حسينية ونحو 69 حوزة شيعية، وتقوم هذه المراكز بتعليم أصول الفقه الشيعي[1].

ومن ثَمّ فإنّ الأهداف للدولتين في سـوريا متناقضة، فبينما تهدفُ إيـران إلـى زرع الفوضـى وتفكيـك البنـى الثقافيـة والعرقية لسـوريا ومنحها هيكلًا طائفيًّا جديدًا، فإنَّ هدف روسيا يتناقض معها تمامًا، فهـي تريـد الإبقاء على وحدة الأراضي السـورية وبناء دولة مسـتقرة توالي موسكو، ولا تسعى لتغيير هُوية سوريا، بل إنَّ إبقاء الهُوية العربية لسـوريا سـيُحقق لموسـكو عوائد مهمة من خلال تدعيم العلاقة مع الأطـراف العربيـة الأخرى. ولذلك أدركت موسـكو مؤخـرًا أنَّ الوجود الإيرانـي فـي سـوريا يبـدو معاديًـا لها على طـول الخط، وبات سـببًا رئيسًا للتوتر والتفكك داخليًّا، ولإزعاج أطراف إقليمية وعالمية، وأنَّ سلوكها الفوضوي في دمشق يُعيق تحويل نصر موسكو العسكري إلى

(1) موقع الحرة، مدارس ولغة فارسية وحسينيات.. حرب ناعمة تشنها إيران في سوريا، (18 فبراير 2020م)، تاريخ الاطلاع: 02 يونيو 2020م، https://arbne.ws/2TZcPh2.

إنجـاز سياسـيٍّ مقبـول دوليًا، ما يعنـي تأخير تمويل إعـادة الإعمار، الذي يربطه المجتمع الدولي بمستوى من التغيير السياسي.

خامسًا: أي أُفقٍ ينتظر تصاعد الخلافات الروسية-الإيرانية؟

بينما تقف روسـيا وإيران أمام هذه الخلافات والتباينات، ومع قرب الوصول بالفعل إلى صراع الحصاد في سوريا، تبدو في الأفق مجموعة من السيناريوهات المحتملة، يُمكن جمعها في سيناريوهين أساسيّن:

السيناريو الأول، يأتي امتدادًا للتحليل السابق، وهو ما يُمكن أن نطلق عليه «نفوذ إيراني محدود في سـوريا». من مؤشـرات هذا السـيناريو مـا تـم طرحه سـابقًا من تصاعد وتيـرة الخلافات والاشـتباكات بين القوات العسكرية الموالية لإيران ولروسيا في كل مناطق سوريا، ومن الشـواهد أيضًا نجاح موسـكو في بلورة تفاهمات سياسـية وتخطيط عسـكري مشـترك مع تركيا وأمريكا وإسـرائيل، وربما لاحقًا مع دولٍ عربيـة ضـد الوجـود العسـكري الإيرانـي (حصـل انفتـاحٌ عربي على سوريا من البوابة الإنسانية لمساعدتها في مواجهة فيروس «كورونا» من قِبل اتصالات جرت بين ثلاثة رؤسـاء دول عربية وبشـار الأسـد). يُعـزز كل هـذه المؤشـرات أنـه منذ مقتـل قائد فيلق القدس السـابق قاسـم سـليماني تراجع الأداء التنظيمي والقتالي الإيراني في سوريا. كان سـليماني العقـل المدبـر لأنشـطة إيـران فـي الشـرق الأوسـط، ووزيـر خارجيتها الفعلي، فيما يتعلق بشـؤون حروب إيران الخارجية، والمسـؤول عـن صعـود القـوات شـبه العسـكرية الموالية لإيـران في معارك العراق وسوريا.

يُمكـن أن يضـاف إلـى مـا سـبق من دلائـل أنَّ هنـاك إرادة روسـية واضحـة بإزاحـة النظـام الإيرانـي مـن أن يشـارك «الكرملين» فـي الوصاية على المستقبل السوري وتطورات الموقف السياسي؛ لخوفه

من أن تستنسخ إيران تجربتها العراقية في سوريا وتوطّد نفوذها في البلد وتحكم السيطرة على قراره السياسي وجزءٍ من أراضيه عن طريق الميليشيات التابعة لها. تريد روسيا أن تستمر كما هي حاليًّا، في الإمساك بالقرار في سوريا، فموسكو من خلال التهديد بقوتها الجوية، وتوظيف ثقلها الدولي، ومرونتها في تشكيل التحالفات، في وقتٍ لا تنظر دول العالم لأيّ شرعية للميليشيات الطائفية الأجنبية الموالية لإيران. وبالتالي فكل المؤشرات والدلائل السابقة تُرجِّح هذا السيناريو، وتُشير إلى أن التطورات والمسارات القادمة ستَسيرُ باتجاه تصعيد التوتر بين روسيا وإيران من جهة، ومن جهة أخرى، باتجاه التراجع والانحسار التدريجي للنفوذ الإيراني في سوريا، خاصةً من قِبل ميليشياتها، ولكن هذا لا ينفي استمرار حضورها الجزئي في عدد من الملفات على الأراضي السورية.

أما **السيناريو الثاني**، فيُمكن بلورته بأنه تطورٌ للمواقف الحالية نحو «نفوذٍ إيرانيٍّ واسع في سوريا» وبقائها كفاعلٍ أساسيٍّ في تشكيل مستقبل سوريا. فسوريا تُمثل عقدة التواصل الإستراتيجي للمشروع الجيو-سياسي الإيراني في المنطقة، وبالتالي فإنَّ مسألة الخروج منها غير مطروحة بالنسبة للإيرانيين. فهناك احتمالٌ كبير أن تختار طهران التركيز أكثر على الجانب المذهبي والمنظور العقدي في إقناع نظام الأسد «العلوي» بحاجته إلى حماية النظام الإيراني «الشيعي» المعادي للأغلبية السُنية في سوريا، وفي دول الجوار الجغرافي المحيطة بها. وسيسعى النظام الإيراني لوضع المزيد من العراقيل أمام موسكو لإثبات أنَّ طهران هي القوة التي يُمكن لنظام الأسد الوثوق بها، والتي أحدثت حضورًا قويًّا في تمكين المكون الشيعي الطائفي في العراق، وأنَّ بإمكانها، وقد فعلت، من تمكين

الطائفـة العلوية في سـوريا، وأنها الوحيـدة مع حزب اللّه، التي يُمكن الاعتماد عليها في حماية سوريا من إسرائيل ومن التنظيمات السُنية المعارضـة. ومـن المحتمـل أن تكون هـذه مبررات تدفع بالأسـد إلى إقنـاع الـروس بإدخـال الإيرانييـن في التفاهمـات الروسـية-التركية-الغربية حول مسـتقبل سـوريا وإعادة الإعمار، وإعطاء طهران مزيدًا من التواجد في سوريا.

يُعزز هذا السيناريو أنَّ الدبلوماسية الإيرانية لطالما غازلت الحزب الديمقراطي بأنها تعملُ في سـياق إسـتراتيجيته «الفوضى الخلاقة» التي ورثها الرئيس السابق باراك أوباما من عهد الرئيس الأسبق جورج بـوش الابـن، كمقاربة داعمة لاحتجاجات ما يُعرف بـ «الربيع العربي» مثلـه مثـل المرشـد الأعلى علـي خامنئي. ومن وقتٍ إلى آخر، ترسـل طهران إشـاراتٍ عبر دبلوماسـييها أنها الوحيدة التي تسـتطيع زراعة الفوضى في التكتل السُـني العربي المحيط بالكيان الإسرائيلي، وهو منحى تتشاركُ فيه مع تل أبيب. وبالتالي فلو نجح الديمقراطيون في الانتخابات القادمة، خاصةً في ظل الظروف الاجتماعية والاقتصادية السـيئة التـي تعصف حاليًـا بالولايات المتحدة، فمـن المحتمل عودة المفاوضات من جديد بين إيران والغرب، وربما ستحمل معها صفقة سـلام جديدة مع إيران يتم فيها غضّ الطرف عن دورها المسـتقبلي في سوريا. وبما أنَّ طهران تُظهر من وقتٍ إلى آخر براغماتيةً عندما يتعلق الأمر بتحقيق مصالح كبرى، فقد لا تمانع مقابل أن يتم الاعتراف بها كلاعبٍ محوري في سـوريا، من الاعتراف بإسرائيل وعمل صفقة جديدة شـبيهة بـ«كامب ديفيد»، أو على الأقل توقيع اتفاقيات سـرية تضمن تعهد إيران وحلفائها بعدم تشكيل أي تهديدٍ ضد إسرائيل. ومع كل هذا، فمن الصعب الحكم بصمود هذا السيناريو لضعف مؤشراته

وقرائنه، ولكنه يبقى فرضيةً تؤكدها أو تنفيها طبيعة التطورات السريعة على الساحة السورية، وكذلك على الصعيد الدولي، وهو في النهاية مرتبطٌ بمدى الإصرار الروسي على استبعاد إيران من أن تكون شريكًا كاملًا في لعبة التفاهمات والمفاوضات القادمة.

خلاصة

وفي الختام، حاولت هذه الدراسة تحليل واستعراض الجهود والمساعي الروسية الهادفة إلى تكثيف الضغوط على إيران من أجل تحجيم نفوذ ميليشياتها وتمددها العسكري على الأراضي السورية. ويُمكننا استنتاج أنه منذ تدخل روسيا وإيران في سوريا والعلاقات الروسية-الإيرانية تبدو ظرفيةً وأقرب إلى تنسيق مصالح الطرفين منها لتحالف إستراتيجي متين. ومع تطور الأزمة، تباينت مصالح الطرفين وتراكم جليد الخلافات الإستراتيجية بينهما، وبدأ الافتراق في أجندة الدولتين، وظهرت صعوبة التعايش معًا على أرض واحدة. ففي الأجندة الروسية القوة العسكرية التقليدية ليستً إلا أداةً لتحقيق أهداف سياسية تنتهي بسلام وإعادة الدولة السورية لتعمل من جديد بكامل مؤسَّساتها، في وقتٍ ينصبُّ الاهتمام الروسي على الأراضي السورية ذاتها أكثر من اهتمامها بمصير الأسد الذي لا تمانع من المفاوضة عليه لتحصل على شيء آخر بالمقابل. بينما في الأجندة الإيرانية، كما في العراق واليمن ولبنان، يهدفُ نظام الملالي إلى ديمومة الحرب العقائدية وزراعة الفوضى وتوليد نموذج الدولة الفاشلة، أو تركيب نظام أيديولوجي يتبع لولاية الفقيه في سياق الإمبراطورية الفارسية والهلال الشيعي، وهذا لا يتم إلَّا بالمحافظة على نظام الأسد.

يُضاف إلى ذلك أنه يوجد بنيةٌ قويةٌ من الشُكوك العميقة والممتدة

تاريخيًّا، المتبادلة بين إيران وروسيا، ما يجعل عامل الثقة بينهما متذبذبًا. لم تُبدِ موسكو وطهران ما يُمكن وصفه بالخطط المستقبلية المشتركة والرؤية المتكاملة حول الشأن السوري، بما يفيد أنَّ حدة الخلافات سيستمر تصاعدها في الأشهر المقبلة، بينما من جانبها ستواصل روسيا محاولاتها في بناء توافقاتٍ مع قوى إقليمية ودولية لتثبيت موقعها على الخارطة السورية وفرض أمرٍ واقع يتواءم مع مصالحها. مثَّلت سوريا، ولا تزال بالنسبة لروسيا، فرصةً لصعود سُلَّم القوّة الدولي، وإعادة صياغته من جديد، لِتستعيد موسكو تصنيفها كقطبٍ أساسيٍّ في النظام العالمي الجديد. وما حققته روسيا من «انتصارات» ميدانية على قوى المعارضة، لا يبدو كافيًا طالما لم يتم التوصل، حتى اللحظة، إلى خارطة طريقٍ سياسيةٍ واضحة المعالم تتضمن إقرارًا دوليًّا بتفويضها في إحداثٍ التحول الذي تريده ونقل سوريا من الحرب إلى السلم وفق خُططها. في ذات الوقت تُدرك موسكو أنَّ هذا الأمر يستلزم بالضرورة، خَفْض دور إيران المُعرقل، وشلّ قدرتها بالتأثير في المجال السوري عمومًا.

وتأتي محاولات روسيا في كبح جماح النظام الإيراني في سوريا في وقتٍ وصلت إلى نقطة الذروة في مشروعها السوري، خاصةً في ظل أزمةٍ «كورونا» وتراجُع أسعار النِّفط؛ بما يجعلها تستعجلُ تسوية الأزمة والحفاظ على ما حققته من مكاسب حتى الآن، وتعويض خسائرها من خلال جعل شركاتها تستفيدُ من إطلاق مشاريع إعادة الإعمار بسوريا وتهيئة البيئة الاستثمارية أمام أطرافٍ دولية وخليجية لمساعدتها في انتشال سوريا من وضع الدولة الفاشِلة.

كل ما سبق يقودنا إلى التوقع بأنَّ النظام الإيراني ستزداد عُزلته ومصاعبه وافتراقه عن روسيا التي أجادت إدارة الأزمة واختيار

الأطـراف التـي تثـقُ فيهـا لمشـاركتها صناعـة قـرارات المسـتقبل السوري. وستزداد الضغوط ضد الوجود الإيراني في سوريا **عسكريًا** مـن خلال اسـتهداف ميليشـياتها العارية من غطـاء دفاعيٍّ جويٍّ من قِبل الطيران الإسـرائيلي، أو **سياسـيًا**، كون طهران لًا تمتلك شـرعية أَو قبولًا دوليًّا لإبقاء الميليشيات الموالية لها في سوريا، أو **اقتصاديًا** فـي ظـل اسـتمرار العقوبات الأمريكيـة ضدها، في وقـت تتزايد فيه الإحتجاجات الداخلية التي تطالب بوقف التبذير على مشاريع خارجية لا تعـود بالنفـع على الشـعب الإيراني. فهل سـيخضع النظام الإيراني أمـام كل هـذه الضغـوط والتحديات لمعادلة الأمـر الواقع، ويقبل بأن تُصيغ روسـيا قرارٍات نهايات المشـهد السوري، ويرضى هو بشئ من المكتسـبات حفاظًا على ماء الوجه، أم أنَّ النظام الإيراني، وقد قدَّم التضحيات الجسـام، قرّر أن يبقى في سـوريا، رغم ما سـيُواجههُ من مخاطر، حتى لو استلزم ذلك «تجرُّع السُم»!؟

info@rasanahiiis.com
@rasanahiiis
www.rasanah-iiis.org